التَّسرّب المدرسيّ

إعداد الباحث

عامر أحمد الأحمد

المقدِّمة

العالم الغربي يسير ويتطور في العلم والنظريات العلمية وصناعة الوسائل التعليمية، بينما مازال العالم العربي يعيش في مخاض الربيع العربي، الذي لما يولد بعد.

فلم يعد التعليم قراءة في كتاب وحسب بل هو عمل وتطبيق وصناعة وإنجاز وإبداع، فهذا الجوال الذي بين يديك مواده الأولية لا تزيد عن خمسة دولارات، إلا أنه يباع بمئات الدولارات، لماذا؟!

احتراما وثمنا لذلك العقل الذي صنعه ولتلك الدولة التي علَّمت، فالعلم هو السلعة الأكثر مبيعا في العالم.

علاوة على التسرب الحاصل ما قبل الحرب والتهجير، وهنا اختلف حجم التسرب الدراسي عن سابقه لأسباب تأتي في محلها.

يختلف معنى التسرب الدراسي بين بلد وآخر، ففي بعض البلدان وفي زمن ما كان من يحمل شهادة الثالث الإعدادي يعد من جملة المثقفين والمؤهلين للإدارة والقيادة، وفي زمن ما ومجتمع آخر تجد من يحمل شهادة جامعية أمر عادي جدا ولا مزية له في قيادة ولا إدارة، وفي بعض البلدان والمجتمعات من يستطيع القراءة فذاك مثقف.

ولا أستبعد وجود مجتمع يعد الذي لم يدرس في الدراسات الجامعية العليا متسربا دراسيا، فالأمر نسبي بامتياز.

فقد رأيت من حالت الحرب دون دراسته وإكماله للدراسات العليا بسبب التكاليف الباهظة والشروط القاهرة التي تضعها الجامعات المتاجرة في العلم.

وفي سرب الحرية الثائر تساقط الكثير من الأطفال والمثقفين والمعلمين والمفكرين، فنتجت بيئة تقهقر فيها دور العلم والتعليم.

وحتى لو وجد التعليم فهو ضعيف التأثير والاستمرارية، فلو نظرنا إلى المدارس المؤقتة في المخيمات، لرأينا الغرق لها مع كل شتاء، فإذا كانت المدارس مبنية على شفا جرف هار، فما بالك بالتعليم والمنهاج والكادر.

ومع كل تلك الصعوبات فأبناء الجيل يتحدون كل الصعوبات ويتابعون التحصيل بدوافع دينية ومجتمعية، فالدين الإسلامي دين علم حتى جعله نبينا الكريم فرضا على كل مسلم ومسلمة، قال صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" و قوله صلى الله عليه وسلم: "بلغوا عني ولو آية" فالعلم إلزامي في الشريعة الإسلامية لكل فرد مسلم بالمقدار الذي تصح به عقيدته وعبادته.

المبحث الأول

معنى التسرب المدرسي

إذا نظرنا في لسان اللغة وجدنا أن التسرب معنى عام شامل، يستعمل في الماديات والمعنويات، فيشمل تسرب الماء وتسرب الغاز، ويقال تسربت العين إذا سال دمعها وتسربت الأخبار إذا وصلت إلى العدو، وتسرب الحزن إلى النفس وتسرب الخوف، وتسرب التلاميذ من مدرستهم بمعنى تفلتوا منها وهربوا.

وهذا المعنى هو بيت القصيد حيث إن المسيرة التعليمية في المجتمع ينبغي أن تمر على كل فرد من إفراد ذلك المجتمع ليحمل قيمه وعاداته وسياساته وحقائقه وصناعاته وتعاليمه ومعلوماته، فتأتي بعض الظروف القاهرة فتمنع الشخص من الانخراط في تلك العملية التعليمية.

إذا التسرب الدراسي ظاهرة سلبية على أفراد المجتمع، وقصور في ذلك المجتمع، فإذا كانت ظاهرة عامة فهي بشارة بفساد ذلك المجتمع، وإن كانت ظاهرة فردية نادرة سهل حلها ومعالجتها.

التسرب الدراسي ظاهرة عامة في شتى بقاع العالم، لها أسبابها التي سنستعرضها، فهي ليست وليدة العالم العربي أو سوريا الثورة أو الشمال المحرر.

التعليم المزهر النافع يحتاج إلى بيئة حرة آمنة مستقرة تحترم العالم والمتعلم يكون للمتعلم فيها الدور الفعال.

يقول أحد الطلاب: بينما أنا أجهز للامتحانات الجامعية، وإذ بطلقات الرشاشات تخترق المعلومات لتتسرب من الذاكرة.

ويقول آخر: بينما أنا ذاهب إلى الامتحان، يوقفني حاجز للتفتيش الاجباري، فذهب وقت الامتحان وانتهى.

ويقول آخر: ما قيمة شهادتي إن لم تجعلني مواطنا ذو أهمية؟!

مما سبق يمكن تعريف التسرب الدراسي بأنه:

ترك متابعة التحصيل العلمي في مرحلة ما تركا كليا أو مرحليا مستمرا أو متقطعا قسرا أو اختيارا.

فترك التعليم سواء كان في المرحلة الأساسية أو الإعدادية أو الثانوية أو الجامعية هو تسرب دراسي، لكن الآثار الناجمة تختلف في كل مرحلة عن أخرى.

وقد يكون هذا التسرب لأسباب خارجة عن السيطرة كالحروب والنزوح والاحتلال والأمراض المعدية العالمية –كالكورونا مثلا – أو الحرائق أو الفيضانات.

فترك التحصيل قد يكون مؤقتا وقد يكون كليا، وكلاهما تسرب قسري أو اختياري.

المبحث الثاني

أسباب ودوافع التسرب المدرسي

تتعد أسباب التسرب بين المادية والمعنوية والاجتماعية والتقليدية والسياسية والتهجير المستمر وغيرها، أما المادية فينظر الأب إلى ابنه القوي الشاب نظرة انتاجية، يريد منه أن ينخرط في الحياة المادية حتى لا يعاني معاناة أبيه، وحتى لا يكون عالة على أبيه، الذي شاب شعره وانحنى ظهره وخارت قواه.

فكل هذا يدفع إلى ترك الدراسة وعدم القدرة على تكاليفها وصعوبة الحياة.

أما المعنوية فينظر الأب إلى المتعلم نظرة دونية، حيث لا يكفيه مرتبه سوى عشرة أيام من الشهر، فينفر من العلم.

حضرت مرة اجتماعا للصرافين والصاغة فيسأل السائل عن شهادة كل واحد منهم، فهذا قد درس للصف السادس وهذا للتاسع وهذا لم يدخل المدرسة أبدا!؟

وقد كان من بين مئة منهم اثنان قد درسا في الجامعة، لذا النظرة المادية مهمة جدا، لهذا ترى أغلب الناس يتوجه إلى الطب والهندسة.

وكثيرا ما ترى جامعيا خريتا يعمل عند تاجر كبير أو صاحب معمل لم يدرس قط؟! فتطيب النفوس من العلم حينئذ.

أما الاجتماعية فمنها التمييز بين الذكور والإناث، فبعض المجتمعات تمنع الاناث مع التعلم إلا إلى حد معين، فيفقد المجتمع مع مرور الوقت القابلة والطبيبة والممرضة والمعلمة وتختلط الأمور.

فينبغي على الزوج تعليم زوجته والأب تعليم ابنته حتى تتكامل الأسرة ويتحمل الكل المسؤولية.

أما عن التقليدية فهي العنف ضد الطالب وأن العصا لمن عصا، وأن العصا من الجنة، وأن لا تشتري العبد إلا والعصا معه، فالعنف من أكثر ما يشجع على التسرب المدرسي.

أما السياسية كحال سوريا الراهن، فكثير من المدارس قد هدمت أو تحولت إلى مقرات ومؤسسات، مما حرم كثيرا من الطلاب من الالتحاق بالمدارس.

أما عن التهجير المستمر، فيدرس الطالب فصلا ثم يتهجر ثم ينتقل إلى منطقة أخرى فيعيد السنة من أولها، ثم يتهجر، وهكذا دواليك، حتى يكره المدرسة ويتسرب.

ومن الأسباب، الفقد التعليمي، فترى الفتى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم يدرس أبدا، ولم يعد عمره يناسب المدرسة، ولن تجد مدرسة تقبل الأعمار الكبيرة فتمحي أميتهم.

ومن الأسباب الداعية لترك المدرسة عدم وعي الأهل بأهمية التعليم، فبحجة الحرية يعطي الأب الحرية لطفله الصغير بين الدراسة وتركها، فهذا الطفل لا يعرف قيمة العلم ولا وضع المستقبل ولا حقيقة المجتمع، فيرفض المدرسة ويختار العمل.

فالطفل يحب اللعب والنوم وشراء الألعاب والتسلية فيجد في الدراسة ثقلا، فيختار تركها.

لذلك ليس دائما الوضع الاقتصادي هو المؤثر الوحيد في ترك المدرسة، فقد حدثنا كثير من الأساتذة أنهم أحيانا كانوا يدرسون تحت الدرج أو في الحمام أو تحت ضوء الشارع، لأن بيتهم ليس فيه إضاءة، وأن بيتهم كان غرفة واحدة.

ومن أسباب التسرب المدرسي عودة الناس إلى التعليم التقليدي – الكتاتيب – وخصوصا في ظل الحروب وهدم المدارس، فصار التعليم إما في المساجد أو في بيوت الشيوخ مقتصرا على تعلم القراءة والكتابة وبعض الحساب.

ومن أسباب التسرب المدرسي وخصوصا في المناطق التي كان يسيطر عليها تنظيم الدولة حيث أن بعض الأهالي قاطعوا المدارس والمناهج واعتبروها مناهج الطواغيت، فعزفوا عن إرسال أولادهم إلى المدارس واكتفوا ببعض المعاهد القريبة من توجهاتهم.

المبحث الثالث

العوامل المؤثرة طردا في نمو وانتشار ظاهرة التسرب

إذا فقد المعلم أهميته في المجتمع فتلك من أهم العوامل التي تؤثر سلبا في ظاهرة التسرب وسير العملية التعليمية، فكثير من الدول لا تحترم المعلم وتجعله في مؤخرة التصنيف الوظيفي، فالمعلم هو الذي يصنع القائد والمهندس والطبيب والوزير والتاجر، ومع ذلك فهو في آخر السلم الاقتصادي من حيث المرتب والمنح.

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلما

المبحث الرابع

تأثير هذه الظاهرة على المجتمع

ظاهرة التسرب الدراسي من أخطر الظواهر على المجتمع، فالشاب الجاهل قنبلة موقوتة، ترمي به الريح خبط عشواء، لذلك تخبط الشباب الثوري بين المظاهرات والسلاح والحوار والقعود.

والأخطر من ذلك توجيه المتسربين للقتال في أي مكان مقابل المال، والالتحاق بجهات مجهولة المبدأ، فالمتسرب لن يميز بين الحق والباطل بإمكاناته البسيطة.

فتراه بعد مدة قائدا لجماعة مجهولة المصدر مجهولة التوجه مجهولة الفكر، هدامة لما سواها.

ومن الأخطار أيضا انتشار الفاحشة والجريمة، وامتلاء السجون بالأحداث، فبدل أن يكونوا في مقاعد الدراسة والجامعات تراهم قعود السجون والمحاكم.

فيضيع مستقبل هذا الشاب المتسرب ويفقد فاعليته في المجتمع ويفقد أثره ووجوده.

فالشباب المثقف هو عماد المجتمع، ويقاس المجتمع باهتمامات شبابه، فإن كانت هممهم عالية فتلك أمارة الرقي والقوة، وإن كان اهتمامهم الألعاب والأغاني والمسلسلات فتلك بشارة شؤم على هذا المجتمع.

المبحث الخامس

دراسة استقصائية لإحدى المناطق التي يكثر فيها التسرب

بعد سؤال عدد من الطلاب في مدينة الباب عن أهم أسباب التسرب المدرسي فكانت الأجوبة متقاربة جدا حيث كانت الأسباب كالآتي:

- الأوضاع المعيشية والمادية الصعبة.
- ارتفاع الأسعار وضعف العملة المحلية.
- أغلب المواطنين من العمال الذين لا صلة لهم بالعملة الصعبة كالتركي والدولار فهم يعملون ويقبضون بالعملة السورية، فهم في خسارة مستمرة.
- الأخ الكبير مضطر للعمل لمساعدة والده أو إعالة عائلته.
- التهجير المستمر.
- هدم الكثير من المدارس واستعمال الكثير منها كمقرات حكومية بدل المنشآت المدمرة.
- غلاء أسعار المعاهد المسائية.
- خواء المدارس من المدرسين الأكفاء والقادرين على التعامل مع الأزمات النفسية وما خلفته الحرب من مآس.
- الكثير من المدارس فيها نقص في المدرسين، وعدم القدرة المالية على التعيين.
- والذي زاد الطين بلة وباء الكورونا الذي قطع التدريس شذر مذر، وأدت الغيبة الطويلة إلى الالتحاق بالعمل ونسيان المدرسة.

وبحكم عملي في إدارة ألف طالب وطالبة كانت هناك سلبية خفية، وهي أن الطالب المهجر المستأجر لا يكاد يستقر في مكان دراسته إلا أشهرا قليلة وسرعان ما يسافر أو يغير الحي أو المنطقة أو يهاجر أو يترك الدراسة، بعد تعب وجهد وثمار ضائعة.

فالتعليم يحتاج بيئة وظروفا نفسية مريحة حتى يكون النتاج يانعا.

المبحث السادس: الحلول الجذرية لهذه الظاهرة

إن اختلاط التسرب التعليمي بالأسباب السياسية، يجعل الحلول الجذرية افتراضية، ولكن من باب البحث نذكر أهم هذه الحلول:

١- إنشاء بيئة آمنة للتلاميذ.

٢- تعيين المعلم المؤهل المدرب.

٣- تقديم منحة شهرية لكل طالب تكفيه احتياجاته الدراسية.

٤- تحصيل الاعتراف بالشهادة التي ينالها.

٥- توعية الأهالي بأهمية العلم والتعليم.

٦- وضع البرامج الداعمة والتعويضية للطلاب المقصرين دراسيا.

٧- إجبار الأولياء على تعليم أولادهم حتى مرحلة معينة.

٨- مجانية التعليم بكافة مراحله.

٩- بناء المدارس المؤهلة للشتاء بدل الخيام التي تعصف بها الريح كل شتاء.

١٠ – رفع رواتب المعلمين بما يكفي احتياجاتهم مع زيادة تساعد على البحث العلمي.

١١- تشجيع التعليم عن بعد وتهيئة الإمكانيات لذلك.